البحث السادس

علم الأديان فى العصر القديم[119]

ظهرت مسائل علم الأديان فى الفكر اليونانى فى وقت مبكر جدًا ، وقد سبق ظهورها – كما هو الحال فى العصر الحديث – تحلل إلى حدما من التقاليد الدينية السائدة ، وسقوط الحاجز المقدس الذى يمنع نقد الشخصيات الدينية أو الاستهزاء بها .

فهوميروس – تلك الشخصية الأسطورية التى تتجسم فيها الحياة الدينية بما يخالطها من طقوس ، وعادات ، وتقاليد – يصبح موضع تساؤل ، وينزل من عليائه إلى ساحة النقد ، والتلويح ، والتلميح .

فنقد التقاليد الدينية مقدمة لظهور علم الأديان ، غير أن لهذا النقد دافعين :

- دافع المعرفة.
- ودافع الإصلاح والتجديد .

وتظهر مسائل علم الأديان واضحة عند محاولة تحقيق هدف الدافع الثانى ، ويمكن للباحث أن يشخص أعراض ظهور علم الأديان تشخيصاً ثابتاً وعاماً بما يلى :

إن أول لحظة يبدأ فيها علم الأديان ، هى تلك التى يبتعد فيها الإنسان إلى حدما من العقيدة الدينية التى شب عليها ، وينظر إليها نظرة باحث عن الحقيقة ، غير متحامل عليها ، ولا متحيز لها ، وألا تكون نظرته إليها نظرة قصير النظر ، سقيم الفهم ، وفى الوقت نفسه لايمنعه من البحث فيها قداسة ، أو شعور بالتبجيل غير القائم على أسس بينة وواضحة .[120]

ينحدر هذا النقد الذى يبدأ به علم الأديان من نظرة سلبية ، كما يمكن أن ينبع من اتجاه إيجابى ؛ فإذا تولد من معرفة منظمة خالصة للمتناقضات داخل عالم التصور الدينى ، أونشأ من تعارض نظرة الدين إلى

---

[119]) اعتمادنا الرئيسى فى هذا المبحث على كتابنا : بحوث فى علم الأديان المقارن ، وعلى :

Joachim Wach: Vergleichende Religionsforschung

[120]) **Vgl. Mensching : Geschichte der Religionswissenschaft S. 17**

العالم ، مع الصورة العلمية المكتسبة ، التى تكونت حديثاً نتيجة البحث العلمى ، ولم يكن له هدف غير هذا، فهو سلبى.[121]

أما إذا تولد النقد الدينى نتيجة التقوى الخالصة ، والمعرفة الصحيحة بالمسئل الإلهية ، والإلمام الكامل بأمور الدين ، مجردة عما لحق بها من شوائب ، وكان الهدف منه – أى النقد – الاصلاح فهو إيجابى .

وعلى أى حال ففى كلا الاتجاهين السابقين تخضع التقاليد الدينية التى لم تمس حتى الآن ، ولم يشك أحد فى صحتها ، وقداستها ، لأقيسة جديدة ، وموازين لم تكن موجودة من قبل ، جردتها من قداستها: وجعلتها غريبة على العقلية التى كانت تشعر بالأمس أنها – أى التقاليد الدينية – جزء من حياتها ، وهذه هى إحدى نتائج النقد الدينى بقسميه ، أى سواء كان الهدف منه :

- إخضاع التقاليد الدينية لوجهة النظر العلمية الدنيوية
- أو القضاء على العادات والتقاليد القديمة ، واستبدالها بأخرى جديدة ، تتفق مع طبيعة العصر ، ولاتصطدم مع النصوص الصريحة لمصادر التشريع الدينى المتفق عليها.

إن وجود علم الأديان ، واستمراره ، مرتبط ارتباطا كليًا بحرية الحكم غير المتحيز على التقاليد الدينية ؛ إذ هو لاينبت فى جو تسيطر عليه العادت المتوارثة ، ولابين أناس يرسم العرف لهم أسلوب حياتهم ، ويمنعهم من التفكير فى الإصلاح والتجديد ، فإذا تحققت شروط وجوده تصبح التقاليد الدينية موضع بحث ومناقشة ، بعد أن تفقد قداستها ، وتُسْلَب منها قوتها فى التأثير على حياة المجتمع إلى حدما ، وتصير كغيرها من الظواهر الاجتماعية ، خاضعة للنقد والتمحيص .

ظهرت هذه الصورة فى ساحة الفكر اليونانى فى العصر القديم ، فصاحبها وجود علم الأديان ؛ إذ بدا فى عالم الفكر نقد – اتخذ الطابع " العلمى " – لتقاليد الدينية ، والأفكار ، والمعتقدات التى تضفى على الأساطير ثوب القداسة . وطبيعى أن هذا لم يكن الهدف منه علمانياً محضاً ، ولا محاولة ترجيح النتائج العلمية – التى توصل إليها الإنسان عن طريق البحث فى الطبيعة – على العقائد الدينية – فقد ظهر هذا التيار فى الفكر الإنسانى فى وقت متأخر جداً ، وبالتحديد فى القرن التاسع عشر بعد الميلاد – ، بل دفع إليه الشعور بالحاجة إلى الإصلاح والتجديد ، وهو أمر دفع المفكرين اليونانيين إلى الاهتمام بالدين ، والنظر إليه من " الوجهة العلمية " ، فبدت أمامهم مشاكل ، واعتراضات تكونت من معالجتها المادة الأساسية التى

---

[121]) المصدر السابق ١٨

اتخذها علم الأديان نقطة انطلاقه ، ولازالت حتى اليوم قاعدته الأساسية التى لايجوز للباحث فى علم الأديان أن يغفلها .

ولكى نوضح المشاكل التى أدنت بظهور علم الأديان فى تاريخ البشرية ، يجب أن نعرض لبعض ملامحها التى ظهرت عند روادها الأول فى الفكر اليونانى والرومانى ، وذلك بعرض وجهة نظرهم " الجديدة " – بالنسبة لما كان عليهم أبناء عصرهم – تجاه الدين الذى كان سائداً آنذاك ، وتجاه قضاياه التى يسلم بها المتدينون ، دون اعتراض . ومن الواضح أننا لن نتاول فى هذا العرض الأفكار الفلسفية البعيدة عن الدين .

تنحصر المشاكل التى سنعرضها فى ثلاث :

١. النقد الدينى.
٢. تفسير الأساطير.
٣. أصل الدين ومراحل تكوينه.

النقد الدينى

اهتزت الصورة الإلهية الموروثة عند اليونانيين ، وترنحت عقيدتهم فى القرن السادس قبل الميلاد . ويرجع ظهور نقد التقاليد الدينية ، والاعتراضات على قوانين الآلهة إلى النشاط العلمى الواسع فى البحث عن معنى العادات الدينية ، ومفهوم التصورات الميتافيزيقية . ورغم شموله مجالات مختلفة ، فقد كانت عدالة الآلهة هى الموضوع الأول والرئيسى . وكان النقد الموجه إليها نابعاً من شعور عميق بالعفة ، والفضيلة ، مدركاً للقيم الأخلاقية .

واجه هذا الشعور الدينى صورة مضادة لما عنده ، وذلك فيما تحكيه الأساطير التقليدية عن أعمال الآلهة ، وسياستها.

كان "تيوجنس Theognis "[122] أول من نقد " زيوس Zeus " (أبا الآلهة والبشر) ، وذلك بلهجة لاذعة يبدو منها البعد والتنصل من الإيمان المطلق فى ذلك العصر ، عصر ما قبل التاريخ ، حيث يقول:

- صديقى العزيز زيوس ! تعجبنى سياستك أيها المتحكم فى كل شيء
- لقد جمعت فى يدك الشرف ، والقوة العليا ، ووحدتهما .
- هذا حسن ، فأنت المتصرف فى قلوب ، وحواس البشر .

---

[122]) شاعر يونانى قديم (حوالى ٥٠٠ ق. م.) نظم فى السياسة ، والأخلاق ، والدين .

- ولكن كيف تقضى يا " Kronida " بالمساواة فى المصير.
- كيف تسوى بين الصالح والطالح .
- يستوى الأمر بين أن يكون القصد الإصلاح والتحكم ؟
- وماذا لو دُفِعَ الإنسان تحت الغواية ، فارتكب إثما ؟ ١٢٣

لم يبدأ بعد – كما يبدو – علم الأديان الحقيقى ؛ إذ لم يخرج النقد عن دائرة المشكلة القديمة ، ألا وهى السؤال عن إرادة الله الشر ، فإذا لم يُرِد ، فلِمَ يقع فى ملكه الذى يتحكم فى كل ذرة فيه ؟

يدور الجدل حول هذا الموضوع – فى غلب الأحيان – بين أناس ، رسخ الإيمان فى قلوبهم ، وسيطرت الشرائع الدينية على حواسهم ، ولذا تظهور هذا التساؤل من تيوجنيس أقرب إلى علم اللاهوت منه إلى علم الأديان ، غير أننا نراه مقدمة ، وإرهاصاً لظهور علم الأديان ؛ إذ يحمل هذا التساؤل عنصر الشك فى عدالة الآلهة ، ويلقى ضوءاً حول الأشياء الغامضة التى تحدث للإنسان . وهى ظاهرة تسبق النشاط العلمى فى مجال الدين ، الذى ظهرت ملامحه واضحة عند " إكسينوفانس Xenophans " – منتصف القرن السادس قبل الميلاد – [124] ، فقد كان النقد الدينى غالباً على فكره ، غير أن دوافعه لم تكن العداء للدين ، بل عدم احترام تصور الأساطير للآلهة ، لأنها تنسب إليهم أعمالاً غير أخلاقية .

يقول إكسينوفانس :

" نسب " هوميروس Homer "[125] و" هيزيود Hesiod "[126] إلى الآلهة كل مالدى البشر من إهانة العار ، والسباب ، والسرقة ، والزنا ، والغش ، والاحتيال على بعضهم ، والخداع المتبادل بينهم .[127] ولم

---

[123]) W. Nestle : Griechische Geistesgeschichte 1944 S. 49

[124]) شاعر وفيلسوف يونانى ، طُرِد من وطنه ، فعاش متجولاً ، ثم استقر أخيراً فى جنوب إيطاليا . ،نتقد الأساطير الدينية اليونانية ، واستهزأ بأسلوب ساخر بتصور اليونانيين للآلهة بأنها تشبه الإنسان فى هيئته ، وأنها تتصف بجميع الصفات البشرية من أخلاق وعادات وتقاليد ...الخ ، وخلص من نقده هذا إلى الاعتقاد بوحدة لموجود الأول ، وبقائه ، ومخالفته للحوادث .

[125]) شاعر يونانى ، تُنسَب إليه الإلياذة والأوديسا – عاش فى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد – ، غير أن " F. A. Wolf " ادعى فى عام ١٩٧٥م أنهما من تأليف عدة شعراء ، ويدور البحث منذ ذلك التاريخ حول وحدة الأفكار فيهما ويميل بعض الباحثين فى العصر الحديث إلى أن الإلياذة تمتاز بوحدة النظم ، أما نسبة الأوديسا إلى شاعر الإلياذة فلا يقول به إلا عدد قليل من الباحثين .

[126]) شاعر يونانى – ولد حوالى ٧٠٠ ق. م. – نظم الشعر حول نسب الآلهة ، ونشأة العالم ، وهو أول شاعر يونانى يذكر اسمه على رأس قائمة الشعراء اليونانيين ، فهو – وكذلك هوميروس – يعتبر عند اليونانيين أول من صور عالم الآلهة

[127]) Fragm. 11-12 Nestle 64

يكن عدم الاحترام فقط هو الدافع إلى هذا النقد ، بل أيضاً عدم ملاءمة الصورة الموجودة فى التقاليد الدينية الشائعة لما ينبغى أن تكون عليه الآلهة :

" يعتقد الناس أن الآلهة يتوالدون ، ويتناكحون ، وأن أشكالهم ، وهيئاتهم تشبههم ، وأنهم يرتدون ملابس مثلهم ، ويتحدثون بلغتهم . "[128]

وهنا يصل إكسينوفانس إلى مشكلة التصور فى الدين ، ويبين ارتباط تصور الإنسان للإله بشكله هو – أى الإنسان – وهيئته بوضوح فى القطعة التالية :

- يتصور الأثيوبى الإله بأنه أسود مفرطح الأنف .
- ويتخيله الطورانى أزرق العينين أصفر الشعر .[129]
- لو كان للخيل والبقر والأسود أيد مثل الإنسان ،
- لاستطاعوا أن يرسموا مثله ، ولأنتجوا لأنفسهم أعمالاً فنية ،
- وحينئذ ترسم الخيل خيلاً ، والأبقار أبقاراً .
- كذلك يرسم كل منها إلهه طبقاً لصورته .
- ولأصبحت صورة الإله المرسومة بأيديهم أحب الصور إليهم .[130]

استمرت هذه الأفكار التى ظهرت لأول مرة فى الفكر اليونانى فى مجال البحث – وخاصة فى بحوث علم الأديان – من عصر إكسينوفانس حتى عصر " فويَرْبـاخ Feuerbach " (١٨٠٤ – ١٨٧٢) دون أن تتغير ، على الرغم من إعادتها ، وتكرارها ، ودون أن تصبح أكثر دقة . ولا نريد هنا أن نبين ذلك ، وإنما نوضح :

- أن التفكير "العلمى" الخاص اهتم بالظواهر الدينية ، وبالعبادات ، والطقوس التى يمارسها الإنسان ، وبطريقة التفكير عن الخطايا تجاه الآلهة .
- وأنه لاحظ لأول مرة أن هناك علاقة بين الإنسان وبين تصوره للآلهة .
- وهذا يعنى فى الوقت نفسه محاولة التخلص من العقيدة الساذجة فى الأصنام والأوثان ، مثل عقيدة من سمع الوحى الإلهى بنفسه ، ورأى الحقيقة بعينه .

---

[128]) Fragm. 14 Nestle 64
[129]) Fragm. 14 Nestle 64
[130]) Fragm. 15 Nestle 94

كذلك يبحث علم الأديان – بجانب تناوله المعتقدات الدينية – النواحى العملية – من طقوس ، وصلاة ، وتقديم قرابين ...الخ – ، فقد تناولها المفكرون اليونانيون بالدراسة ، والتمحيص ، فلم تسلم من نقدهم . يقول " هيرقليط Herakls " ناقداً طريقة التكفير عن السيئات :

" هم يطهرون أنفسهم من الأوساخ التى علقت بها – وهيهات أن يتطهروا – بدهن أجسامهم بدم القرابين ، مثلهم فى ذلك مثل من خاض فى الأوحال ، ويريد أن يغسل ماعلق به بالقاذورات ، ألا يعد هذا المرء أقرب إلى الجنون ، عند من يراه وهو يقوم بهذا العمل ؟ يتوجهون بصلاتهم إلى هذه الأصنام ، فلا يختلفون عمن يقف أمام هذه المنازل ، يوجه إليها الخطاب – أو يثرثر أمامها – دون أن يكون لديه أى تصور عن جوهر الآلهة ، أو عن الأبطال الذين يعدون أنصاف آلهة . [131]

يواجه علم الأديان دائماً – سواء كان فى مستهل ظهوره فى العصر القديم . أو فى عصر ازدهاره – خطر الانحراف ، بسبب طابعه العقلى المحض ، وإهماله جوهر العواطف الإنسانية ، وتأثير الأشياء المقدسة على نفسية المؤمن – وهذا مايبدو فى نقد هيرقليط – ، فإن من المسلم به أن المعتقدات البدائية ، والعبادات الساذجة ، تحتل مكاناً مغايراً لما لدى هيرقليط ، عندما يشرحها باحث آخر ، فيبرز النواحى الإيجابية فيها تجاه المؤمن بها من الناحية النفسية : والخلقية ، والاجتماعية ؛ فقد نقد أفلاطون الأديان البدائية [132] ، ولكنه عاد فأجاز بعض العبادات فيها ، بعد أن حور معناها ، ومقصدها ، يذكر " تيموس Timaus " – مؤرخ يونانى ٣٤٥ – ٢٥٠ق.م. – ماقاله أفلاطون فى هذا الصدد :

" نحن نعتقد أن الآلهة الحية ترعانا برحمتها ، وتشملنا بعنايتها ، لأننا نقدس صورها غير الحية "يقصد بذلك الأصنام" ، كذلك نقد " أريستوفانس Aristophanes " فسق الآلهة وشرورها – كما تصورها الأساطير – نقداً لاذعاً " [133]

خضعت الدولة اليونانية للرومان فى القرن الثانى قبل الميلاد ، فكان ذلك سبباً من أسباب الاتصال الفكرى بينهما فى جميع المجالات ، ومن بينها موضوعنا الذى نتحدث عنه ، غير أننا سوف نكتفى بنقد أحد كبار مفكرى الرومان للحياة الدينية ، ألا وهو " سينيك Senece " المتوفى سنة ٦٥م ، لأنه كان متأثراً إلى حد كبير بالمدرسة الرواقية .

---

131) Fragm. 5 Nestle 71f.

131) Mensching : Geschichte der Religionswissenschaft S. 22

132) Mensching a. a. O

133) Mensching a. a. O

وجه سينيك نقده إلى خلو المعتقدات الدينية ، والعبادات من الروحانية ، ودعـا إلى الإخـلاص ، وطهارة النفس ، وإلى الإيمان بالإله عقلاً ، وروحاً ، وذلك حيث يقول :

"هل تريدون أن تتصوروا الإله عظيماً ورحيماً ؟ ... إذن ، فلا يحتاج المرء إلى تعظيمه عـن طريـق تقديم الضحية التى تسيل دماً . أىُّ لذة تلك التى تهيئها له قتل النفس البريئة ؟ ، بل لايكـون تعظيمـه إلا بالقلب الطاهر ، والنية الصادقة فى عمل الطيبات . لايحتاج المرء إلى أن يبنى له معبداً من الحجـر ، عـالى الأبراج ، بل ينبغى على كل فرد أن يهب له قلبه ". [١٣٤]

تفسير الأساطير

لم ينفرد النقد السلبى – قل أو كثر – بمسرح الفكر اليونانى ، كان هناك تيار فكرى آخـر ، اتجـه اتجاهاً إيجابياً ، فى فهم ، وتفسير الأساطير الدينية ؛ إذ حاول تأويل ما لايقبله العقل من هذه الأساطير، تـارة ببيان أن اللفظ ليس مستعملاً فى معناه الحقيقى ، بل المجازى ، وأخرى بتفسيره تفسيراً رمزياً .

فهيرقليط – وهو الذى نقد أسلوب التكفير عن السيئات كما سبق – يعترف أن الأسرار الدينيـة ، لاينفرد العقل المفكر بفهمها ، بل قد يضطر الإنسان أحياناً إلى استعمال طرق أخرى – مباينـة للعقـل – لفهمها ، ويتضح هذا الرأى من قوله :

" هو الواحد الحكيم ، سواء باسم زيوس أم لا " [١٣٥]

إذ يفهم من هذه الكلمة أن هيرقليط يرى أن اسم زيوس ، ليس إلا رمزاً للألوهية ، فلا يتعلـق بـه شيئ من جوهرها . كذلك لاينقص من قدر الإله ، إطلاق اسم زيوس عليه ، فهـو يـساعد فقـط علـى تصورالإنسان للإله الحى . ومما يفيد فى تأكيد هذا التفسير أن هناك ارتباطاً بين كلمـة "Zen " ومعناهـا : الحياة ، وبين " zeus " التى هى : عَلَم بمعنى : الحى . ونستنتج من هذا أن هيرقليط فسر المصطلحات الدينية تفسيراً رمزياً ، فكان ذلك بداية الاتجاه الرمزى – الذى اهتم به كثيرا علم الأديان فى وقت متأخر جـداً – فى تحليل الصور والشعائر الدينية .

حلل " بلوتارش Plutarch " [١٣٦] نقطة مشابهة ، وكان الدافع له على هذا الاتجاه ذلك الجدل الـذى كان دائراً آنذاك حول الصورة الإلهية – ظهر هذا الجدل مرة أخرى فى الكنيسة البيزنطية فى القرنين الثامن والتاسع بعد الميلاد – ، وتتلخص معالمه فى الأسئلة الآتية :

---

[134]) Fragm. 23 Nestle 73

[135]) Fragm. 32 Nestle 73

- أيُعَظّم الإنسان الصورة ، أم يتخذها وسيلة تعظيم الإله ؟
- وإذا اتخذها وسيلة ، فهل تكون جزءاً من الإله أم رمزاً له ؟
- ولأيهما يكون الجزء الأكبر من التقديس – أو التقديس مطلقاً – للصورة أم لمن تمثله ؟

يقول بلوتارش :

" يجب على الإنسان أن يسلم تسليماً قلبياً ، أنه لايعظم هذه الأشياء – الأحجار الميتة وغيرها – ، بل يعظم الألوهية بواسطتها [137] ، فهى أكثر الوسائل وضوحاً ، فى انعكاس الألوهية ، وأقربها إلى طبيعة الإنسان ، فيجوز له أن يعتبرها – أى الأصنام وما شابهها – قطعة فنية – أو آلة – للألوهية التى تنظم العالم وتدبره " [138]

ولكى نوضح وجهة نظر الباحثين فى علم الأديان – فى نظام منهجى مرتب – حول مشكلة الأساطير، ينبغى أن نقرر هنا أن هيرقليط أشار – وذلك فيما يتعلق بكل ظواهر التكوين الدينى – إلى أن الأفكار والأسماء ماهى إلا إشارات ورموز للحقيقة ، تشير إلى جوهر الألوهية الغامض ، دون أن ينقص ذلك من كماله .

عندما تهتم الفلسفة اليونانية بمسائل علم الأديان ، تذهب فى تفسير الأساطير مذهباً آخر : التفسير المجازى ، وهو يؤكد ما أشرنا إليه سابقاً من أن علم الأديان يولد فى جو تسيطر عليه العقلية المفكرة تفكيراً منطقياً ، إذ يندرج تحت هذا التفسير ثلاثة آراء تتسم كلها بالطابع العقلى ، ويحدد معالمها التفكير المنطقى .

رفض العقل الصورة الدينية التى رسمتها الأسطير ، لذا اهتم بتأويلها ؛ إذ لم يكن مقبولاً إنكارها مطلقاً ، لأنها مقدسة – مافى ذلك شك – ، ولأنه يظن أنها تحتوى على الحقيقة الإلهية الغامضة ، إذن ليس هناك سوى محاولة تفسيرها تفسيراً مجازياً .

فهم كثير من المفكرين اليونانيين الظواهر الدينية فى الأساطير على معناها المجازى ، وبجانب هؤلاء الذين اتبعوا الأسلوب المجازى فى الشرح ، وجدت مجموعة أخرى ، اتجهت فى تفسيرها اتجاهاً تاريخياً ؛ إذ رأت أن فى هذه الكلمات حقيقة مستورة لايفهمها إلا من اتصل اتصالا روحياً بمنبعها .

---

[136] فيلسوف ومؤرخ يونانى (٤٥ – ١٢٠م) تقلد منصب العمودية فى بلدة "Charonea" فأتاح له ذلك فهم طبقات الحكم ، ثم تقلد منصباً كهنوتيا فى دلفى . جمعت كتاباته الفلسفية والعلمية تحت عنوان " أخلاقيات " وكانت لمقارناته بين الحياة اليونانية والرومانية – فى مجالات الأبطال ورجال الحكم ، وطبقات المجار – أثر كبير على الأجيال المتأخرة حتى العصر الحديث .

[137] يقترب هذا الرأى من تفكير كفار مكة ، حيث قالوا : " مانعبدهم إلا لقربونا إلى الله زلفى "

[138]) Mensching : S. 23

وسوف نتناول أولاً التفسير المجازى :

١. أن أول من استعمل هذا التفسير هو" تيوجنيس فون رجيــونTheognes von Rhgion " – القرن السابع قبل الميلاد – ، ويتضح ذلك من فهمه لمعركة الآلهة . [139] كانت المعركــة الإلهية فى إلياس سبباً فى ظهور التفسير المجازى لدى المفكرين اليونانيين ؛ لأنهم أدركوا أن من المستحيل أن الآلهة يتصارعون ، إذن يحمل الأمر كله على معنى آخر ، معنى مجــازى يرفع هذه الاستحالة ، ويلبس الأحداث صورة يقبلها الفكر ، فليست الآلهة فى الأساطير إلا قوى الطبيعة ، لا على أنها صورة فى صيغة رمزية طبيعية ، بل تنوب الآلهة عن قــوى الطبيعــة فى أعمالهــا : فـــ " أبوللون Apollon " [140] ، و " هيليــوس Helios " [141] ، و " هيفيستوس Hephästos " [142] يمثلون النار . و "بوزيدون Poseidon "[143] ، وإله النهر "سكامندر Skamander " يمثلون المــاء . و "هــيرا Hera " [144] الهــواء . و " أرتمــس Artemis " [145] القمر . [146]

ســار " بيرمينيــديس Purmenides " – حــوالى ٥٠٠ ق. م. – ، وكــذلك " إمبيــديكليس Empedikles " – توفى عام ٤٣٠ق.م. – على نفس الطريقة فى تصنيف الآلهة ، وتوزيــع قــوى الطبيعــة عليها ، والتحدث عن كل قوة باسم من وكل بها . إن الاعتقاد فى تشخيص قوى الطبيعة ، أو فى أن الآلهــة موكلة بها، كلٌّ حسب اختصاصه ، ظل الفكرة السائدة فى مجال علم الأديان حتى العصر الحديث .

---

[139]) ملحمة شعرية نظمها هوميروس ، ويتحدث فى إحدى مقاطعها عن الحروب اليونانية التى دامت سنين طويلة .

[140]) إله النور ، والشعر ، والموسيقى . كان اليونانيون يعتبرونه الإله الأعظم ، وهو أول الآلهة التى أخذها الرومان عن اليونانيين . وفى عهد أغسطس اعتبر الإله الحامى للعرش . وتحكى الأساطير أنه ابن الإله زيوس .

[141]) إله الشمس ، وهو ابن " هيريون Hyperion " تحكى الأساطير أنه يسير نهاراً فى السماء بعربة الشمس ، تجرها أربع من خيول ، ثم يعود ليلاً إلى الشرق فى قارب ذهبى عبر النهر الذى يحيط بالعالم .

[142]) إله النار ، ومنه الحرارة ، وهو زوج أفروديت .

[143]) إله البحر ، فعندما قسم العالم بينه وبين أخيه ، كان نصيبه البحر ، فأقام هناك فى قصر ، شُيِّد فى أعمق مكان فى البحر . ويسميه هوميروس إله الزلازل .

[144]) إلهة إبنة " Korons " و " Reneia " ، وهى أخت وزوجة " Zeus " ، وكانت تعتبر حامية الزوجية ، والمرأة عموماً.

[145]) إلهة القمر ، إبنة "Zeus " ، و " Reneia " ، حامية الحيوان البرى ، وإلهة الصيد .

[146]) Mensching : S. 25

٢. بجانب التفسير المجازى للأساطير على النحو السابق – وهو تشخيص قوى الطبيعة – نطالع فى العصر القديم تفسيراً أخلاقياً ، ونجد هذا الاتجاه عند " Thogenes von Thogion " . فهو يرى أن الفطنة تجسدت فى " Athene " إلهة العلم والفن ، وعدم الفطنة فى "Ares " إله الحرب ، والشهوة فى " Aphrodite " إلهة الحب والجمال ، والخطاب فى " Hermes " رسول الآلهة . [١١٧]

وأوضح من تلك المحاولة ، تلك التى قام بها السوفسطائيون فى شرح أصل فكرة الاعتقاد بالله : وكيفية وجود الشرائع الدينية ، فذهبوا إلى أن الغرض من هذا كان الرغبة فى الوصول إلى تحقيق أهداف أخلاقية ، تصلح المجتمع ، وتقوِّم سلوك الفرد . ونظراً لأهمية هذا الاتجاه فى إلقاء الضوء على مواقف أصحاب المذاهب الحديثة من الدين ، وبيان أن حججهم ليست جديدة على العقل البشرى ، ننقل هنا فقرة من أسطورة : " Satyrspiel Sisyphos " :

- قبل العصر القديم، حيث كان الإنسان يعيش مع الحيوان فى وحدة، متساوٍ معه فى كل شيء .
- كان الحكم للأقوى ، دون أن يأخذ الطيب ثوابه ، أو ينال الشرير عقابه .
- حدث هذا فقط عندما – هكذا يبدو لى – وجد قانون العقوبات ،
- وطبق على الجميع بدون محاباة ، وضع الشرير فى السلاسل والأغلال ، فمن ينتهك حرمة القانون ، يطبق عليه الحكم .
- كى يكفر عن سيئاته .
- نعم بلا شك ؛
- لأن القانون يصد الإنسان (عن ارتكاب الخطايا) على هذا النحو
- تسلل المجرمون فى الظلام .
- عندئذ اخترع – هكذا يبدو لى – رجل ذكى ماكر للإنسان الخوف والخشية من الله.
- ليكون ذلك ردعاً للأشرار .
- فلو كان العمل بعيداً عن أعين الرقباء .
- والكلمة مقولة فى السر والخفاء .

---

[147]) Vgl. Mensching S. 25

- والأفكار لم تزل هواجس فى عقل الإنسان .
- علم بها الواحد الصمد – هكذا يقرر الدين – ،
- الخالد ، الذى يبسط سلطانه على كل الوجود .
- فهو يسمع ويرى ، وهو الحكيم العليم .
- يراقب الكل مراقبة إلهية ، فهى طبيعته .
- يسمع كل كلمة يتلفظ بها الإنسان .
- يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور .
- هكذا تراقب الآلهة ، ثم تفكر .
- فتلك فلسفتها ، وحكمتها .
- وبأسلوب مماثل شرَّع – يعنى الرجل الذكى الماكر – أسمى الشرائع على الإطلاق.
- وعبر بالكلمات عن الحقيقة المستورة ....
- فاستسلم الخارجون عن القانون للشريعة .
- وهكذا – كما أعتقد – قاد الرجل الذكى الماكر .
- العالم إلى طريق الاعتقاد بالله .[١٤٨]

ويلاحظ القارئ أن كاتب هذه الأسطورة يعتقد أن الأساطير الإلهية والاعتقاد فيها ، والالتزام بما تدعو إليه ، هو عمل اختراعى محض ، اخترع كى يضفى على القانون الأخلاقى سيادة عليا ، ويراقب أعمال الإنسان مراقبة ذاتية ، تنبع من داخل الفرد نفسه ، أعنى من مقر الإيمان المستقر فى قلبه ، تذكره بأن هناك من يراقبه فى كل مكان وزمان ، دون أن تحول الحجب التقليدية دون ذلك .

٣. ظهر الاتجاه الثالث فى تفسير الأساطير تفسيراً مجازياً عند " بروديكوس Prodikos " أحد السوفسطائيين فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ فهو يعلل وجود قوى الطبيعة فى الأساطير على هيئة أشخاص بقربها من الإنسان وفائدتها له ، فلم يؤله الإنسان – طبقاً لرأيه – بادئ ذى بدء ظواهر الطبيعة ، لبيان وظيفة الآلهة فى كل ظاهرة منها ، ولا ليحمى نفسه منها ، بل لأن حياته متعلقة بها : أُلِّهَت النجوم ، والشمس ، والقمر ، والأنهار والينابيع ، والماء ، والنار ، والخبز ، والخمر ، لأنها مفيدة فى حفظ الحياة ، فحلول الألوهية فى هذه

---

[148]) Fragm. 25

الأشياء – كما تحكى الأساطير – لايدل على معنى آخر أكثر من أنها بهذه الكيفية ضرورية لحياة الإنسان . وبتعبير آخر : عبر إنسان ما قبل التاريخ عن تعلقه الكامل بالطبيعة ، وارتباط حياته بها بالأساطير التى تحكى تشخيص قوى هذه الطبيعة فى صورة آلهة .

بجانب التفسير المجازى الذى ذكرنا فى عرضه أهم الشخصيات التى روجته داخل الحياة الفكرية اليونانية ، ومناهجهم المختلفة فى بيان المعنى المجازى لمضمون الأساطير ، وُجد أيضاً فى العصر الكلاسيكى القديم اتجاه آخر نحو حل لغز الأساطير الدينية عن طريق البحث فيها عن حقيقة اختفت معالمها . ويطلق " Nestle " فى كتابه " Grichische Geistesgeschichte " على هذا الاتجاه : " التفسير المنطقى " ، ولم يوافقه "Mensching " على هذا الرأى :

" يبدو أن هذا التعريف غير مناسب لتمييز العنصر الأساسى لهذا النوع من البحث ، ووضعه فى مقابل التفسير المجازى ؛ لأن كلاً منهما "منطقى" ، فهذه الكلمة لايراد بها المنهج ، بل المضمون ؛ إذ المعقول هو ماتدركه الحواس ، وليس هو طريق الحصول على المعرفة . إذن لم يعد الأمر يتعلق بأن المراد قوى الطبيعة بالذات ، أوماتقوم به هذه القوى ، أو بأن المقصود بهذه الأساطير الوصول إلى تحقيق هدف أخلاقى ، بل بيان أن هناك حقيقة عقلية مستورة فى نماذج – وصور – الأساطير الحسية . وواجب العلم الآن تخليص هذه الحقيقة من ثوبها الأسطورى ، وتجليتها للعقل لدى الإنسان صاحب الوعى والإدراك . ولا يحتاج المرء للوصول إلى هذه الحقيقة التى يظن وجودها فى الأساطير كنواة مختبئة إلى منهج منطقى ، بل أولى من هذا وأهم منه ، أن يتتبع المرء أولا : الحقيقة تاريخياً ، ابتدءً من العصور الأولى ، حيث بداية تلك الأساطير .

أصل الدين

اهتم علم الأديان فى كل العصور بمشكلة البحث عن أصل الدين ، فظهرت ولا فى الفكر اليونانى ، بجانب شرح وتأويل الظواهر الدينية فى الأساطير ، وتوقفت من جوانب متعددة بغية الاهتداء إلى منبع العقيدة الدينية عموماً .

بينا فيما سبق أن علم الأديان بقسميه يحتاج إلى أسس واقعية وظواهر عملية ، حقلاً لبحثه ومجالاً لنشاطه ، وتحقق هذا فى النقطتين اللتين فرغنا من الحديث عنهما ، وهما : النقد الدينى ، وتفسير الأساطير . أما النقطة التى نريد عرضها فى هذا المقام ، وهى البحث عن أصل الدين ، فليست من المشاكل الأساسية

التى يتناولها علم الأديان بمفهومه الحديث ، بل هى تابعة كلية لعلم الفلسفة الدينى كما بينا ذلك سابقاً . ولكن لما كانت الإجابة على التساؤل عن أصل الدين ومنبعه ، لدى المفكرين اليونانيين ، على اختلاف مناهجهم ، ونزعاتهم ، متطابقة مع النتيجة التى توصل إليها علماء الأديان فى العصور المتأخرة ، وكذلك لما كانت قضية مسائل الدين ، أو طرق بحثها مطلقاً ، لم تقسم لدى المفكرين اليونانيين فى العصر القديم ، فلم يستقل علم الأديان المقارن عن الفلسفة الدينية ، كما حدث فى العصر الحديث ، جاز لنا أن نعرض بإيجاز آراء المفكرين اليونانيين حول منبع الدين .

عندما يحاول المرء – كما هو الحال لدى الطبيعيين اليونانيين – توضيح الأعمال الروحية فى الكون – التى يكون الدافع إليها الحب والبغض – من الحركات الذرية ، فلسوف يقوده البحث إلى محاولة فهم ظاهرة الدين من الغرائز الأساسية فى الإنسان ، وهذا ماحدث فى العصر القديم حين ظهرت فى الدعوى التى لم ينته البحث فيها حتى الآن ، ألا وهى أن منشأ الدين هو الخوف من قوى الطبيعة الهائلة . ذهب إلى هذا الفيلسوف الطبيعى " ديمزكريتس Democrite " (٤٦٠– ٣٧١) [١٤٩] ، ومال أيضاً – كما مال كثيرون غيره ممن جاءوا بعده – إلى أن الاعتقاد فى الآلهة كان فى أول الأمر اختراع رجال كانوا متفوقين على غيرهم فى الإدراك ، أخبروا أن زيوس يسكن فى السماء . [١٥٠] وفيما يتعلق بتصور عقاب الجحيم يقول "ديموكريتس " : إنه انعكاس للضمير السيء ، الذى ينتظر العقاب – على ما اقترف من آثام – فى الحياة الأخرى المتخيلة ، لأنه لم يأخذ جزاءه فى هذه الحياة . ويعلل " أبيقور Epicure " [١٥١] أصل الاعتقاد فى الله بتعليل مشابه تماماً لما ذهب إليه ديموكريتس . [١٥٢]

تحدثنا فيما سبق عن رأى "برودیکس Prodikos " فى تفسير الأساطير الدينية ، فهو لايرجع أصل الدين إلى الخوف ، بل يرى أن منشأ الدين راجع إلى القيام بالشكر على النعم التى يتلقاها الإنسان من الطبيعة ، فالمرحلة الأولى تكونت أساساً نتيجة تعظيم الظواهر الطبيعية التى تلعب دوراً هاماً فى حياة الإنسان، وبعد هذه المرحلة انتقلت نظرة الإنسان الدينية – هكذا يقول "Prodikos " – إلى مرحلة ثانية

---

[149]) فيلسوف يونانى ذهب إلى أن كل كائن مركب من ذرات لاتحصى ، وأن السعادة تقوم بضبط أهواء النفس . وهو يعتبر مؤسس الفلسفة المادية.

[150]) Fragm. 30

[151]) فيلسوف يونانى (٣٤١– ٢٨٠ ق.م.) فلسفته عملية . يقول فيها : إن فى اللذة سعادة الإنسان ، واللذة قبل كل شيء ، العقلية والروحية كالصداقة والفضيلة . نفى وجود العناية الإلهية . حبذ النظريات الفلسفية .

[152]) fragm b. Nestle 360

أعلى من السابقة ؛ تعظيم طبيعة إلهية ، لم تحل هذه المرة فى ظواهر الطبيعة ، بل فى إنسان أدى خدمات جليلة لقبيلته أو لمجتمعه أو للإنسانية . [153]

لم ينفرد " بروديكس Prodikos " بهذا التفسير، بل ذهب إليه أيضاً "أويفيميروس Euphemeros" – توفى عام ٢٩٨ق.م. – واشتهر به لدرجة أن المدرسة الفلسفية التى نسبت إلى اسمه عُرِفَت بين الباحثين حتى اليوم بهذه الطريقة فى تفسير منشأ الاعتقاد فى الله . ولازال علماء الأديان حتى عصرنا الحاضر ينسبون هذا الاتجاه إليها . وممن اعتقد هذا المبدأ أيضاً " ديودور Diodor " [154] المعاصر لأغسطس .

تدور آراء هؤلاء العلماء إجمالاً فى مدار واحد ؛ وهو محاولة ربط الأسباب المادية بالتعليل المنطقى ، للاستدلال على أن الدين كان عملا مخترعاً ، قَبِلَه العقل البدائى تحت تأثير بواعث مختلفة ، دفعته إلى أن يصوغه فى صور شرائع وتعاليم ، كما بينا ذلك سابقاً عند السوفسطائيين ، إذ تعتبر صياغتهم لهذا الاتجاه هى " الصيغة العلمية " التى تعبر عن آراء العلماء الماديين فى العصر القديم حول أصل الدين وكيفية نشأته .

خالف أرسطو (٣٨٤–٣٢٢ق.م.) هذا الاتجاه مخالفة جوهرية ؛ فنحن نرى – لأول مرة – فيلسوفاً يرجع نشأة الدين إلى أسباب روحية ، ويعارض معارضة تامة فكرة إرجاع أصل الدين إلى أسباب مادية خالصة ؛ فهو يرى أن الدين يتكون من منبعين :

- التجربة الروحية داخل الإنسان ، ويعنى بذلك قدرة الروح على إدراك ماحولها ، والتفكير فيه ، ثم محاولة تخليص نفسها منه ، لتصفو من الشوائب المادية ، وتكسب – فى حالة الأحلام – كشفاً غير عادى .
- العجب من قوى الطبيعة ، وعلى الأخص من عالم النجوم ، وعبر الإنسان عن ذلك بالأساطير التى توضح دهشته من أسرار السماء المزينة بالنجوم الكثيرة. [155]

وعليه فيمكن القول بأن أرسطو كان أول من بين أن أصل الدين راجع – جزئياً – إلى الإنسان نفسه، وإلى ممارسته ، ومشاهدته لظواهر الطبيعة ، وإلى تفاعل هذا كله مع طبيعته الروحية ، وصفائه النفسى، فقد كان يشير أيضاً بين الحين والآخر إلى أن الدين –كما يظهر له فى تعاليمه الغامضة – ليس درساً

---

[153]) Vgl. Fragm. 5. Nestle 173

[154]) مؤرخ يونانى عاش فى القرن الأول الميلادى فى صقلية ، وكتب تاريخ العصر القديم حتى عام ٥٤م فى أربعين جزءاً ولم يبق منها سوى الأجزاء من ١– ٥ ، ومن ١١–٢٠ .

[155]) Mensching S. 30

يتعلمه الإنسان فيصير متديناً ، بل هو تصديق قلبي روحاني ، وممارسة ماتمليه هذه الظاهرة الروحانية . وبهذا شاع في الفكر اليوناني أن أصل الدين له منطقة أخرى – بجانب ما كان شائعاً قبل أرسطو من أنه نابع من الظواهر المادية فقط – داخل الإنسان نفسه.

ظهر في القرن الأول قبل الميلاد رأي جديد حول منبع الدين – لم يزل الاتجاه السائد عند كثير من العلماء حتى اليوم – ، وكان أول من قال به الرواقي "بوزَيدونيوس Poseidonios " ؛ فقد فرق لأول مرة بين منبعين للدين ، أحدهما: فطري غريزي يولد به الإنسان ، والآخر: مكتسب يتلقاه من الجو المحيط به :

" يشترك الناس جميعاً – متحضرهم وبدائيهم – في المنبع الأول للدين ، وذلك هو الغريزة الفطرية في الاعتقاد في الألوهية الذي يتولد من الواقع ومن التصديق ؛ فلايختار ، ولايحدث عن طريق الصدفة ، وهو قديم قدم الإنسان ، لم يصبه الخمول إطلاقاً ، بل نشط إلى أقصى حدود النشاط ، ظهر بين كل الشعوب واستمر ، ويمكن أن يعتبر نفعاً عاماً لكل فرد من أفراد السلالات التي تميزت بالعقل والإدراك . [156]

يحتوي هذا النص على الأفكار التي كانت – ومازالت – محل بحث في علم الأديان :

- الدين غريزة في الإنسان (فطرة الله التي فطر الناس عليها) .
- وهو عام بين أفراد البشر قاطبة .
- العقل هو مستقره الأساسي ، ولذا فهو تصور عقلي للألوهية .

ذلك هو مايعرف باسم " الدين الفطري الطبيعي " ، ظهر على مسرح الفكر اليوناني ، واهتم به علم الأديان المقارن ، ولم يزل من المواضيع الرئيسة التي يبحثها العلماء عند دراسة الظواهر الدينية في الأديان المختلفة .

نلاحظ أن "poseidonios " تجاوز النظريات الإلحادية لدى معظم المفكرين المذكورين في تاريخ الفكر اليوناني القديم ، حيث يرى أن الإنسان واقع تحت تأثير الدين ، ويتصور تصوراً ذاتياً نابعاً من تجارب شخصية ، وهو الطريق لإدراك الحقيقة ذات التأثير الفعال ، هي حقيقة الألوهية الخالقة . وبهذا التفاعل بين التأثير والتصور – وبتعبير آخر : التطابق بين الدين والفطرة في الإنسان – يميز "Poseidonios " الدين من الحقائق التي يتعلمها الإنسان : " الحقائق المكتسبة عن طريق التعليم " ، هي تلك التي تغرس في الروح عن

---

[156]) المصدر السابق ٣١

طريق الكلمات ، والقصص الدينية ، والآداب التى ليس لها مؤلف معروف تنسب إليه ، ولكنها من ناحية أخرى دونت فى سجل ، ونسبت إلى قوة ذات مكانة عالية . " [157]

إذن يتكون الدين من عنصرين:

أحدهما مشترك بين الأديان جميعاً ، وهو روح الإنسان وفطرته ، وإليه يرجع بالتأكيد – كما يقول "Poseidions "– : الجزء الصادق الذى لايتطرق إليه أدنى شك .

أما العنصر الثانى فتختلف فيه الأديان وتتفرق ، وهو التعاليم الخاصة بكل دين : تصور الإله ، كيفية خلق العالم ، العبادات ، المعاملات ....الخ

تاريخ الأديان

بدأ تدوين علم الدين التاريخى – أو علم تاريخ الأديان – تدويناً علمياً مستقلا فى بلاد اليونان ، بعد فتح الإسكندر الأكبر ، وكان "تيوفراستوس Theophrastos " أول مؤرخ يونانى للأديان [158] . بدأ فى كتاباته التاريخية معالجة المادة الدينية معالجة منهجية ؛ فهو يحاول أن يستدل عن طريق المقارنة على أن التقرب إلى الله بالأضحية – أى بإحراق الدم – ضلال وبعد عن الصواب ، كان نتيجة تصور خاطئ للذات الإلهية .

وقد كتب كثير من المؤرخين فى العصور التالية فى علم التاريخ الدينى ، ولايتسع المقام للتحدث عنهم تفصيلاً ، لذلك نذكر نبذة عن البارزين منهم :

- "سترابون Strabon " (٦٣ق.م.–٢٠م.) : عالم جغرافى رحالة ، زار مصر فى عام ٢٥م ، وكتب التاريخ من عام ١٤٤ق.م. حتى نهاية الحرب الأهلية – قيل إنها انتهت فى عام ٢٧ق.م.
- " باوزانياس Pausanias ": عالم آثار ، وكاتب . مسقط رأسه آسيا الصغرى ، ارتاد اليونان وآسيا الصغرى ، وسوريا ، ومصر ، وليبيا ، وإيطاليا ، وكتب وصفاً لليونان فى الفترة مابين عامى ١٨٠ ، ١٦٠ق.م. ، وهو من المصادر الهامة فى تاريخ الفن القديم ، والدين ، وجغرافية اليونان .

---

[157]) المصدر السابق ٤٢

[158]) المصدر السابق ٣٣

- " بلوتارش Plutarch " : فيلسوف يـونانى – سبق الكلام عنه – . كان لكتابه : " De Jside et Osiride " أهمية كبرى لدى علماء تاريخ الأديان .
- "تير فارّو Ter Varro " (١١٦ – ٢٧ق.م.) : كـان من أبرز العلماء والكتـاب فى روما ، ألف كثيراً من الكتب فى مختلف الفنون ، ومن أهم مؤلفاته فى تاريخ العلوم العقلية دائرة معارف العصر القديم الرومـانى الـسياسية والثقافيـة المعروفـة تحـت اسـم : "Antiquitates rerum humanarum et dirinarum "
- " لوكيان Lukian " : كاتب يونانى ، ألقى محاضرات عديدة فى أماكن عـدة فى آسـيا واليونان ، وكتب كتيبات كثيرة ، استهزأ فيها من عادات عصره ، و"الخداع" الـديني، وسرعة اعتقاد العامة فى كل شيء حتى وإن كان منافياً للعقل .
- " تاكيتوس Tacitus " : مؤرخ رومانى ، قدم للباحثين فى الأديان معلومات قيمة عنها ، لم توجد فى أى مصدر آخر .

ومع كثرة هذه الكتب التاريخية ، فإن الأبحاث الدينية المستقلة فى العصر القديم لم تذكر شيئاً ذابـال عن أديان الشعوب الأخرى ، إذ انحصرت فى أديان اليونان والرومان [١٥٩] ، إلا أنها اشتملت على مبادئ قيمة لعلم الدين المنهجى ، سواء كان ذلك فى مجال علم الأديان المقارن ، أو فى مجال علم الدين التاريخى .

لم تمت الأفكار التى ظهرت فى محيط ذلك العلم المنهجى – سواء ما كان منها صحيحاً ومـا ظهـر بطلانه – ؛ فهى تبزغ بين الحين والآخر ، تبعاً للتيارات الفكرية التى تهب على المجتمع ، فالمراجع التاريخيـة مستمرة حتى اليوم فى تقديم مادة علمية قيمة لعلم تاريخ الأديان .

* * *

[159] لايتناقض هذا مع ماكتبه هيرودوت – المتوفى فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد – ، لأنه لم يكتب عن الأديان كتابة مستقلة ، بل كانت أخباراً متناثرة بين طيات ماكتبه عن الشعوب التى رحل إليها ، أى أنها كانت ممزوجة بالأوصاف الإقليمية .